الباب الأول

النظام الفرعي الأوروبي

THE EUROPEAN SUBSYSTEM

obeikandl.com

obeikandi.com

النشوء من الإمبراطوريات القديمة
EMERGENCE FROM OLD EMPIRES

في القرن الثاني للميلاد كانت الإمبراطورية الرومانية تغطي مساحة شاسعة ضمت سائر الأقاليم المطلة على البحر الأبيض المتوسط، كما امتدت الإمبراطورية حتى شملت إنجلترا وأوروبا الغربية عدا ألمانيا شمالاً، واليونان والأناضول والهلال الخصيب شرقاً، وسواحل شمال إفريقيا جنوباً. كانت أجزاء روما الجنوبية والشرقية تتصل براً وبحراً بأجزاء كبيرة من بقية العالم القديم حتى الهند والصين. وفي ذلك العصر، ظهرت بواكير النظام العالمي الجديد، لكنه لم يدم طويلاً بعد سقوط روما.

ومن المهم أن نلحظ هنا أن المقصود بسقوط روما هو سلسلة أحداث معقدة دامت قرونا عدة تفاقمت خلالها الفوضى على أطراف الإمبراطورية قبل انتقالها إلى الداخل. زد على ذلك، أن "السقوط" لم يؤثر بالتساوي في جميع أرجاء الإمبراطورية السابقة. ففي شمال غرب أوروبا، كانت آثاره أشد بكثير من آثاره في امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط أو حوضه الشرقي. فمصطلح "عصور الظلام" إذن لا ينطبق إلا على الجزء الشمالي الغربي من أوروبا.

في تلك المنطقة، تمكنت القبائل الجرمانية التي كانت تحتل شمال إيطاليا وشرقها في نهاية الأمر من اقتحام الحدود الرومانية مستفيدة من الضعف الداخلي بعد أن كانت تلك القبائل في الماضي ترد على أعقابها عند الحدود، وتشكل مصدراً خصباً للعبيد

الذين يقعون في الأسر ويُجرّون للعمل في المزارع داخل الإمبراطورية. وحدثت موجات الغزو الأولى في القرن الثالث، لكنها لم تترك آثارا مستديمة، لكن صد الموجات المتلاحقة فيما بعد كان من الصعوبة بمكان. فخلال القرن الخامس، نجحت سلسلة من أعمال الغزو في نهاية ذلك القرن بتقويض أركان الحكم الروماني الموحد وبتفكيك الجزء الغربي من الإمبراطورية بين الغاليين والفندال، والقوط Visigoths ومن بعدهم اللومبارديين.

وفي القارة الأوروبية "أدى توالي أعمال الغزو هذه إلى انحسار مستوى التقدم والأداء في الدول التي قامت بعد ذلك" (أندرسون، ١٩٧٤م ب، طبعة عام ١٩٧٨م: ص ص ١٢٥ – ١٢٦) بعد أن انصهرت التقاليد الرومانية والجرمانية الخاصة بالقانون والأحوال المدنية في بوتقة غير متجانسة قوامها محاولات لامركزية شتى لتنظيم الاقتصاد في غياب إمبراطورية أو تجارة. وفي القرن الثامن حاول شارلمان Charlemagne إعادة تنظيم هذا النظام الفوضوي تحت سيطرته، باتخاذه لقب إمبراطور الغرب في عام ٨٠٠م واستغلاله الكنيسة بصفتها المؤسسة الوحيدة التي احتفظت ببعض الوحدة، بهدف إضفاء الشرعية على ادعاءاته. في ذلك الوقت بدأت أوروبا الغربية تخرج من التشرذم والانعزال الذي انحدرت إليه بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية.

لكن النهوض كان رغم ذلك بطيئاً. فبعد وفاة شارلمان انقسمت الإمبراطورية الهشة مرة أخرى، وتعرضت لهجمات المجر والفايكنغ. ولما أشرف القرن التاسع على نهايته كان نظام دفاعي قائم على شكل أولي من أشكال الإقطاع القائم على المزج بين الأسلاف الرومان والجرمانيين قد نشأ في غرب أوروبا.[١] بعد ذلك بقرن من الزمن كان النظام الاجتماعي المعروف بالنظام الإقطاعي قد تأسس، وبالأخص في فرنسا وبلاد الأراضي المنخفضة (هولندا). وفي تلك الآونة، وبحسب ما ذكره بيري أندرسون Perry Anderson (١٩٧٤ ب، طبعة ١٩٧٨م: ص ١٤٢ ؛ وانظر أيضاً بيرين Pirenne، ١٩٢٥م: ص ص ٥٠ – ٥١)، فإن

الريف الفرنسي على وجه الخصوص، أصبح يعج بالقلاع والحصون الخاصة، التي شيدها سادة الفلاحين بدون أي رخصة إمبراطورية، للصمود في وجه الهجمات البربرية وتدعيم سلطتهم المحلية.

أما القلاع الجديدة فكانت حصنا وسجنا للفلاحين. وأما طبقة الفلاحين، التي كانت تنحدر في مهاوي الخنوع في السنوات الأخيرة من حكم شارلمان، فقد سقطت الآن في قيود العبودية العامة.... وبذلك توطدت أركان الإقطاع في طول أوروبا وعرضها على مدى القرنين التاليين.

توطدت دعائم الإقطاعية بعيداً عن السواحل، ونمت مراكز تجارية صغيرة أو انتعشت من جديد حول قلاع أسياد الحرب أو ضمن حدود الأديرة المحمية حيث استطاع التجار ممارسة أعمالهم بعد حصولهم على مزايا خاصة وعلى حماية النبلاء المحليين لقاء خدماتهم التجارية. وكانت بعض هذه المستوطنات، وبالأخص على الطرق البرية أو النهرية المهمة، مواقع لإقامة الأسواق الموسمية أو مراكز للتبادل التجاري الدولي المصغر الذي وصل إلى المناطق الداخلية.

ومع انتهاء القرن العاشر، كان الفايكنغ قد عادوا من حيث أتوا أو اندمجوا بالسكان المحليين (كما حدث في إنجلترا). وبذلك توسعت المدن خارج الأسوار التي كانت حبيسة فيها بسبب الرعب حتى ذلك الحين. وفي القرن الحادي عشر، كانت أوروبا الغربية تزداد اندماجا وقدرة على إنتاج فائض أكبر للتبادل مع أنها ظلت مقسمة إلى أقاليم تتمتع بالاكتفاء الذاتي تقريباً. كما ازداد عدد المدن، حتى إن بعضها بني بالقرب من الساحل. وفي القرنين التاليين، شهدت القارة انفجاراً سكانياً وعمرانياً (للاطلاع على التفاصيل انظر هوهنبرغ و ليز Hohenberg and Lees، ١٩٨٥م).

لكن هذا الانفجار العمراني والسكاني الداخلي لم يحدث بمعزل عن الانفجار الخارجي الذي حطم وإلى الأبد العزلة التي فرضها سقوط روما على القارة. فحين أشرف القرن الحادي عشر على نهايته شن حكام شمال غرب أوروبا أولى حملاتهم الصليبية على "الأراضي المقدسة" التي يحكمها المسلمون، فساروا بجيوشهم برا نحو القسطنطينية ثم انعطفوا جنوباً نحو فلسطين. ولا شيء يعبر عن الانقسام الذي كان في القارة بين شمال أوروبا وساحل المتوسط أكثر من تجنب الطريق البحري إلى بلاد الشام بالإبحار في البحر الأبيض المتوسط. وليس أدل على العلاقة المتغيرة بين هاتين المنطقتين الأوروبيتين من أن الشمال نقل جنوده في سفن إيطالية في سائر الحملات الصليبية التي تلت.

في هذا الجزء من الكتاب، نتتبع نشوء النظام الأوروبي الذي تطور من التحام شمال غرب أوروبا في العصور التالية لعصور الظلام مع جنوب أوروبا المزدهر الذي لم يخض عملية الانفصال ذاتها مع العالم ثم العودة إلى التواصل معه. فإذا كانت الأنوار قد انطفأت في شمال غرب أوروبا خلال عصور الظلام، فإنها بقيت تشع في إيطاليا، ولو أنها كانت تتذبذب حيناً، وتخبو حيناً آخر.

حين احتل اللومبارديون شبه الجزيرة الإيطالية في القرن السادس لجأ بعض سكان الساحل الشمال الشرقي إلى منطقة الأهوار في البحر وأسسوا مدينة البندقية. وقد حافظ هؤلاء البحارة – ولم يكن لديهم خيار آخر – على علاقاتهم بالجزء الشرقي المتبقي من الإمبراطورية الرومانية، وهي دولة بيزنطة المسيحية التي سيطرت من عاصمتها القسطنطينية على مساحة صغيرة من الأرض. وهكذا كانت البندقية همزة وصل مهمة عبر البحر الأبيض المتوسط، حيث حافظت على الاتصالات والمعرفة رغم الضعف الذي أصاب العلاقات المكثفة بين الأقاليم المطلة على ذلك البحر.

وفي القرن السابع، انضم الجزء الأكبر من الإقليم الشرقي خارج آسيا الصغرى إلى الإمبراطورية الإسلامية، فقد انتشر الإسلام في شمال إفريقيا حتى وصل إلى المغرب خلال القرن الأول من انتشاره ثم عبر مضيق جبل طارق إلى جنوب إسبانيا. أما في الشرق، فقد انتشرت الأمة الإسلامية في بلاد فارس وأفغانستان حتى وصلت إلى شمال الهند وغرب الصين، وأنشأت اقتصاداً عالمياً كان بمثابة نواة لنظام كبير بعد انضمام أوروبا إليه. وكان البنادقة وأهل جنوة والدول – المدن الإيطالية الأخرى، صلة وصل بين شمال غرب أوروبا ونظام الشرق الأوسط.

لكن أكثر ما يزعج في انتشار الإسلام بالنسبة إلى العالم المسيحي هو اعتناق سكان الهلال الخصيب للإسلام – وهذا معناه انتقال السيطرة على الأراضي المقدسة إلى "الكفار العرب المسلمين".* صحيح أن بيزنطة أجبرت على الانسحاب من هذه المناطق،

* هذا الوصف يعبر عن شعور الصليبيين تجاه المسلمين وحقدهم الدفين آنذاك. (المترجم)

لكن الأمل كان في العودة، وهو الأمل الذي تبنى الصليبيون العمل على تحقيقه. فما إن استعاد الاقتصاد الأوروبي عافيته بدرجة كافية في القرن الحادي عشر حتى أصبح بإمكانه أن يعبئ بعض القدرات الحربية للإقطاعية العسكرية "لاستعادة فلسطين".

بين مطلع القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر – الذي تميز باستعادة فلسطين من الممالك الصليبية، وهو ما يصفه المؤرخون الأوروبيون بسقوط عكا ١٢٩١م – شهدت أوروبا الغربية والبلدان الواقعة على السواحل الجنوبية والشرقية من البحر الأبيض المتوسط اتصالات مكثفة شاب العنف معظمها. وتتالت الحملات الصليبية واحدة تلو أخرى، لتدعم التحالف التنافسي بين أوروبا الشمالية من خلال الوسطاء الإيطاليين، بحلقات التجارة التي كانت موجودة من قبل بين الشرق الأوسط والهند والصين.

وهكذا نرى أن الحملات الصليبية، رغم فشلها في النهاية، تمخضت عن نتائج مهمة، لأنها كانت الآلية التي أعادت اندماج شمال غرب أوروبا بالنظام العالمي الذي ابتعدت عنه بعد سقوط روما. فلا عجب إذن أن كان القرن الثالث عشر عصر ازدهارا بالنسبة إلى القارة فآفاقها لم تكن وحدها التي توسعت إذ شمل التوسع مواردها أيضاً.

لقد استفادت أوروبا كثيراً من "ألوان التقدم" الجديدة التي اكتسبتها من علاقاتها بالشرق. فالتوابل، والحرائر، والأقمشة المقصبة، والسكاكين الدمشقية، والأواني الخزفية، والبضائع الفاخرة التي لم يكن يحلم بها الأوروبيون كانت الجائزة التي ظفر بها الصليبيون. فربما اندفع الصليبيون بادئ الأمر بالرغبة في الاستحواذ على النفوس، لكنهم كانوا يستمدون قوتهم جزئياً من الاستيلاء على الغنائم. ولما فشل الغزو، أصبح الشراء ضرورياً. ولم يكن لدى أوروبا شيء تعرضه للتبادل التجاري، اللهم إلا العبيد والمعادن الثمينة (وبالأخص الفضة) والخشب والفراء (حيث كان الخشب نادراً في أراض معظمها صحارى مترامية الأطراف، والفراء غير موجود، وهو على أية حال غير مرغوب في بلاد حارة). لكن الحاجة إلى سلع تباع في أسواق الشرق حفزت الإنتاج في أوروبا، ولاسيما الأقمشة الصوفية الناعمة من صوف الغنم الذي يرعى في سهولها وهضابها.

ومن المؤكد أن النهضة الزراعية، والمعدنية، وأخيراً الصناعية التي شهدها شمال غرب أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تعزى جزئياً إلى توسع آفاقها، وإلى ازدياد فرص التجارة التي وفرتها الحملات الصليبية. وكانت تلك فترة العمران في طول القارة وعرضها، سواء في فلندرة وفرنسا - وكانتا على اتصال بالحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط عبر مرسيليا، وإيج مورت، ومونبلييه، وبالأخص ميناثها الرئيس جنوة - أو في القسم الأوسط بوساطة نهر الراين الذي كان صلة الوصل بين بحر الشمال والبندقية - وهي المنفذ الرئيس لأوروبا على البحر الأبيض المتوسط (جانشوف، ١٩٤٣م). ومع أن هذه التجارة كانت تتم أصلا في أسواق موسمية في البداية ثم أقيمت باستمرار في مدن معدة لاستقبال التجار من شتى الجهات، إلا أن التصنيع المتزايد الذي نتج عن الزيادة الكبيرة في عدد السكان، وارتفاع الطلب على التجارة الشرقية، أدى إلى نمو مراكز التجارة الحقيقية التي لها منافذ بحرية، وأصدق مثل على هذا مدينة بروج.

لقد استمرت العلاقات مع الشرق من خلال القسطنطينية في العصور الوسطى، لكن هذا لم يوفر الوصول إلا إلى الطريق البرية الشمالية إلى الصين، ولم تكن تلك الطريق آمنة ولا رخيصة (فقد كانت على الدوام ميادين قتال لقبائل الرحل المتصارعة، كما كان السفر براً أعلى كلفة من السفر بحراً). ولم يصبح بمقدور الأوروبيين السفر في هذه الطريق الطويلة والمحفوفة بالمخاطر إلا بعد توحيد المنطقة في أوائل العصر المغولي على يد جنكيز خان (المتوفى في ١٨ أغسطس، ١٢٢٧م).

وفي هذا الجزء من الكتاب، نتناول ثلاثة أعضاء رئيسين في النظام الفرعي الأوروبي في النظام العالمي في القرن الثالث عشر: مدن أسواق شمبانيا (تروا، وبروفنس، ولاجني، وبار - سير - أوب) التي كانت تتولى العلاقات الأوروبية الجديدة فيما بينها ومع الشرق، ولاسيما في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث

عشر؛ والمدن الصناعية - التجارية في فلندرة (جنت وبروج اللتان أخذتا هذا الدور الأساس في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر؛ والموانئ الإيطالية الأساس (جنوة والبندقية) اللتان تصلان أوروبا الشمالية الغربية بالمراكز التجارية في الشرق الأوسط (الشكل رقم ٢).

الشكل رقم (٢). النظام الأوروبي: مواقع مدن شمبانيا الأربع، والمدينتين الفلمنكيتين بروج وجنت، والبندقية وجنوة الإيطاليتين.

الهامش

Note

١- كما نتبين من هذه الملحوظات، فإننا نعد النظام الإقطاعي الذي تطور في شمال غرب أوروبا تشكيلاً اجتماعياً نوعياً لا يمكن للمرء أن يتوقع أن يجد له مثيلاً، على أساس أنه ما من منطقة أخرى ورثت القوانين الرومانية الدقيقة والعادات الجرمانية التي اجتمعت في ذلك الزمان والمكان. ومن ناحية أخرى، فإن بعض السمات التي نراها في النظام الإقطاعي الأوروبي في العصور الوسطى ظهرت في فترات وأماكن أخرى. ولا ضير في الإشارة إلى أوجه الشبه هذه من خلال استخدام عبارة "النظام الإقطاعي" للدلالة على التشكيلات الأخرى المعينة، ما دمنا نعرف أنه ليست سائر الأجزاء مشروحة في المسرد.